رسائل الإصلاح (١٤)

الشيخ البشير الإبراهيمي

إمام في مدرسة الأئمة

أ. د. محمد عمارة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

رسائل الإصلاح (١٤)

الشيخ البشير الإبراهيمي

إمام في مدرسة الأئمة

تأليف
أ.د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

(١)

بطاقة حياة

• هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م).. من قبيلة « أولاد إبراهيم » العربية، التي استوطنت مقاطعة قسنطينة - بالجزائر.

• ولد بريف الجزائر - في يوم الخميس (١٤ شوال سنة ١٣٠٦هـ/ ١٣ يونية سنة ١٨٨٩م)، في أسرة توارثت علوم الإسلام والعربية على امتداد خمسة قرون.

• وتربى وتعلم في كنف عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، ودرس على يديه الكتب التي كانت تدرس بالأزهر الشريف في ذلك الحين.. وكان لا يفارق عمه ليلًا ولا نهارًا.. يعلمه عمه، ويتعلم من عمه، حتى في لحظات إسلام عمه الروح إلى بارئها!

• وكان ذا ذاكرة حافظة خارقة للعادة.. حفظ القرآن الكريم في تمام الثامنة من عمره، مع فهم مفرداته وغريبه.. ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلا وكان قد حفظ العديد من « المتون » منها (الألفية) لابن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢هـ/١٢٠٣ - ١٢٧٤م).. ومعظم (الكافية) - لابن مالك أيضًا - وألفيتي العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦هـ/١٣٢٥ - ١٤٠٤م) في الأثر

والنثير.. ومعظم رسائله المجموعة في كتابه (ريحانة الكتاب).. و (كفاية المتحفظ) للأجدابي الطرابلسي (المتوفى قبل ٦٠٠هـ/١٢٠٣م).. وكتاب (الألفاظ الكتابية) للهمداني (٣٢٠هـ/٩٢٢م).. وكتاب (الفصيح) لثعلب (٢٠٠ - ٢٩١هـ/٨١٦ - ٩٠٤م).. وكتاب (إصلاح المنطق) ليعقوب السكيت (١٨٦ - ٢٤٤هـ/٨٠٢ - ٨٥٨م).. و (جمع الجوامع) في الأصول.. و (تلخيص المفتاح) للقاضي القزويني (كان حيًا ٣٥٦هـ/٩٦٧م).. و (رقم الحلل في نظم الدول) لابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ/١٣١٣ - ١٣٧٤م) ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس، كابن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٦هـ/٩٩٢ - ١٠٣٥م).. وابن أبي الخصال (٤٦٥ - ٥٤٠هـ/١٠٧٤ - ١١٤٦م).. وأبي المطرف ابن أبي عميرة (٥٨٢ - ٦٥٨هـ/١١٨٦ - ١٢٦١م).. ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق، كالصابي (٤٨٠هـ/١٠٨٧م).. والبديع (٣٥٨ - ٣٩٨هـ/٩٦٩ - ٩٩٨م).. مع حفظ المعلقات.. والمفضليات.. وديوان الحماسة.. وشعر المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤هـ/٩١٥ - ٩٦٥م) كله.. وشعر الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٦هـ/٩٧٠ - ١٠١٥م).. وابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣هـ/٨٣٦ - ٨٩٦م).. وأبي تمام (١٩٠ - ٢٣١هـ/٨٠٦ - ٨٤٦م) والبحتري (٢٠٦ - ٢٨٤هـ/٨٢١ - ٨٩٧م).. وأبي نواس (١٤٥ - ١٩٦هـ، ٧٦٢ - ٨١٢م)..

كما استظهر الكثير من شعر جرير (٢٨ - ١١٠هـ/ ٦٤٠ - ٧٢٨م).. والأخطل (١٩ - ٩٠هـ/ ٦٤٠ - ٧٠٨م).. والفرزدق (١١٠هـ/٧٢٨م).. كما حفظ كثيرًا من كتب اللغة كاملة.. مثل (الإصلاح) و (الفصيح).. ومن كتب الأدب.. مثل (الكامل) و (البيان) و (أدب الكاتب).. كما حفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم (نفح الطيب)، وأخبارهم، وكثيرًا من أشعارهم.

ولقد بلغت قوة حافظته الحد الذي كان يحفظ فيه عشرات الأبيات من سماع واحد!

• وفي الحادية عشرة من عمره بدأ عمه يشرح له العديد من المتون التي سبق له حفظها.

• ولقد مات عمه سنة (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) - وعمر الإبراهيمي أربع عشرة سنة -.. وكان عمه قد أجازه الإجازة العامة.. وعهد إليه أن يخلفه في التدريس لطلابه، فأصبح شيخًا وهو في سن الصبا!

• وفي سنة (١٣٢٩هـ)، أواخر سنة (١٩١١م) - رحل الشيخ الإبراهيمي - متخفيًا - من الجزائر إلى الحجاز - وعمره إحدى وعشرون سنة - فالتحق بوالده، الذي كان قد استقر بالمدينة المنورة منذ سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م).. وفي طريقه إلى الحجاز، أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر، طاف فيها بحلقات دروس

العلم في الأزهر الشريف - دروس الشيخ سليم البشري (١٢٤٨ - ١٣٣٥هـ/١٨٣٢ - ١٩١٧م).. والشيخ محمد بخيت المطيعي (١٢٧١ - ١٣٥٤هـ/١٨٥٤ - ١٩٣٥م).. والشيخ يوسف الدجوي (١٢٨٧ - ١٣٦٥هـ/١٨٧٠ - ١٩٤٦م).. والشيخ عبد الغني محمود.. والشيخ السمالوطي.. والشيخ سعيد الموجي (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ/١٨٥١ - ١٩٣٥م).. وزار العديد من العلماء والشعراء.. من مثل الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ - ١٩٣٥م).. وأحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١هـ/١٨٦٨ - ١٩٣٢).. وحافظ إبراهيم (١٢٨٧ - ١٣٥١هـ/١٨٧١ - ١٩٣٢م).. وغيرهم من العلماء والشعراء والأدباء.

• وفي المدينة المنورة - وعلى امتداد خمس سنوات - واصل الشيخ البشير التعلُّم والتعليم.. فحضر العديد من دروس العلم.. وخاصة دروس الشيخ العزيز الوزير التونسي.. والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي.. كما أخذ التفسير عن الشيخ الخليل إبراهيم الأسكوبي.. والجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري.. وأنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي.. وعلم المنطق عن الشيخ عبد الباقي الأفغاني.

وفي المدينة - أيضًا - استفاد من المكتبات العلمية الموجودة فيها.

• وخلال سنوات إقامته بالمدينة المنورة تفتحت الملكات الإصلاحية والسياسية للشيخ الإبراهيمي.. وتدارس قضايا الخلافة الإسلامية.. وحال الدولة العثمانية.. وأوضاع الأمة العربية ومستقبلها.. والهيمنة الاستعمارية.. وخاصة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٧ - ١٣٥٩هـ/١٨٨٩ - ١٩٤٠م) - الذي التقى به في المدينة المنورة سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).. وعلى امتداد ثلاثة أشهر تذاكر الشيخان وتدارسا وخططا معًا للنهوض بوطنهما الجزائر، وانتزاعها من المسخ الاستعماري الصليبي الفرنسي، وإعادتها إلى العروبة والإسلام.. وكان التعليم والإصلاح الديني هو السبيل إلى تحقيق هذه المقاصد، التي قامت لإنجازها « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » سنة (١٣٤٩هـ/مايو ١٩٣١م)..

• وبعد ثورة الشريف حسين بن علي (١٢٧٠ - ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٣١م) - حاكم المدينة المنورة يومئذ - ضد الخلافة العثمانية - ولحساب الإنجليز - وكان الشيخ البشير ضد هذه الثورة - تم ترحيل الكثيرين من سكان المدينة إلى الشام - ومنهم الشيخ البشير ووالده - في النصف الأخير من سنة (١٣٣٤هـ/١٩١٦م).. فاستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

• وفي دمشق، طلب منه القائد التركي جمال باشا (١٢٨٩ - ١٣٤٠هـ/١٨٧٢ - ١٩٢٢م) - بواسطة أحد أعوانه - التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى.. وفضَّل الاشتغال

بالتدريس، فعمل أستاذًا للعربية في مدرسة « السلطاني ».

• وعندما حكم الأمير فيصل بن الحسين (١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ/١٨٨٣ - ١٩٣٣م) دمشق.. قامت علاقات صداقة بين الشيخ البشير وبين الأمير فيصل.

• وفي دمشق تزوج.. وفيها توفي والده.. وأحد أولاده.

• وعندما بلغته أخبار عن الجزائر، تبشر بتحسن الجو للعمل الإصلاحي.. عاد إلى الجزائر سنة (١٣٣٨هـ) - أوائل سنة (١٩٢٠م) - على نية القيام بالعمل العلمي.. ثم السياسي.. فتعاون مع النخبة التي كانت قد سارت على المنهاج الذي رسمه هو والشيخ ابن باديس.. وتواصل العمل التمهيدي للحركة الإصلاحية بالجزائر عشر سنوات.. حتى جاءت سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م)، فأقامت فرنسا مهرجانات الاحتفالات بمئوية استعمارها للجزائر.. واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة.. ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: « **إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن الكريم ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم** »!!..

وخطب سياسي آخر فقال: « **لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه**

المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار »!!

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال: « **إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد.. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل** »!!..

• وفي مواجهة هذا الفجور « الاستعماري - الصليبي » تأسست « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م).. وكان رئيسها الإمام ابن باديس.. ووكيلها ونائب رئيسها الإمام البشير.. وبذلك بدأت الثورة الإصلاحية والإحيائية - في الجزائر - سالكة طريق المنهاج الإسلامي في الإصلاح.. وبواسطة المؤسسات الإصلاحية.. والعمل المؤسسي المنظم، أخذت المدارس والخطب والدروس في تكوين الجيل « العربي - المسلم » والوطني، العامل على استعادة الجزائر إلى حصون العروبة والإسلام والاستقلال.

• وفي (٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/ ١٠ أبريل سنة ١٩٤٠م) - اعتقل المستعمرون الفرنسيون الإمام البشير الإبراهيمي، ونفوه إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني.

• وفي (ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/ ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠م) - توفي الإمام عبد الحميد بن باديس - والإمام البشير في المنفى -

فانتخبه قادة « جمعية العلماء » رئيسًا لها.. وبعد خروجه من المعتقل والمنفى - الذي دام قرابة ثلاث سنوات - وضع تحت المراقبة الإدارية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

• وما هي إلا أشهر حتى سيق - ثانية - إلى السجن العسكري - بالجزائر العاصمة - في (جماد ثاني سنة ١٣٦٣هـ/ ٢٧ مايو سنة ١٩٤٥م) - عقب مذابح فرنسا بمدينة سطيف فرنسا في (٨ مايو ١٩٤٥م) التي قتلت فيها (٦٠,٠٠٠) من الجزائريين!... وظل الإمام البشير في زنزانة مظلمة تحت الأرض مدة سبعين يومًا!.. وبعد مائة يوم في السجن العسكري بالجزائر.. وبسبب سوء حالته الصحية، نقلوه إلى السجن العسكري بقسنطينة.. فلبث فيه أحد عشر شهرًا.. ولقد دخل إلى السجون معه يومئذ (٧٠,٠٠٠) من أعضاء جمعية العلماء!

• وبعد الإفراج عنه، عاد إلى قيادة العمل الإصلاحي، كأقوى ما يكون عزمًا، وأصلب ما يكون عودًا.

• وفي (جماد ثاني سنة ١٣٧١هـ/٢٧ مارس سنة ١٩٥٢م) بدأ الشيخ البشير رحلته الثانية إلى المشرق.. فأقام بالقاهرة أسبوعًا.. وفي باكستان قرابة ثلاثة أشهر، ألقى فيها - بمختلف مدن باكستان - نحوًا من سبعين محاضرة في الدين والاجتماع والتاريخ والإصلاح.. ثم ذهب إلى العراق، فطوّف بمدنها نحوًا من ثلاثة أشهر، ألقى فيها عشرات المحاضرات.. ثم رحل إلى

الحجاز في موسم حج سنة (١٣٧١هـ/١٩٥٢م)، وألقى في الحرمين الشريفين العديد من الدروس والمحاضرات.. ثم رجع إلى القاهرة في (٢٤ أكتوبر من نفس العام/ ربيع أول سنة ١٣٧٢هـ).. ومنها عاود الترحال إلى العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس لعدة مرات.. محاضرًا في الدعوة إلى الإصلاح، ومدرسًا بالمساجد الكبرى، وفي بعض المدارس لعلوم الإسلام والعربية. ومعرفًا بالقضية الجزائرية وداعيًا إلى مناصرة شعبها وثورتها التي قامت سنة (١٩٥٤م) ومدافعًا عن القضية الفلسطينية، وسائر قضايا الأمة الإسلامية.

• وفي القاهرة، أقام الإمام البشير مكتبًا باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » للإشراف على تعليم طلاب الجمعية ببلاد المشرق العربي.

• وفي القاهرة – التي اتخذها مركزًا لنشاطه – انتخب عضوًا عاملًا بمجمع اللغة العربية سنة (١٣٨٠هـ/١٩٦١م).

• وعندما استقلت الجزائر سنة (١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) عاد الإمام البشير إلى الجزائر.. وخطب خطبة الجمعة في افتتاح مسجد « كتشاوه » – بالجزائر العاصمة – الذي عاد مسجدًا بعد أن كانت الصليبية الاستعمارية الفرنسية قد حولته إلى كاتدرائية كاثوليكية طوال قرن وثلث القرن!

• وكان آخر أعمال الإمام البشير – قبيل وفاته.. وإبان

مرضه - هو النداء الذي أذاعه في (٣ ذي الحجة سنة ١٣٨٣هـ/ ١٦ أبريل سنة ١٩٦٤م) إلى قادة الدولة الجزائرية، داعيًا إياهم إلى إنقاذ الجزائر من خلافات الثوار!.. وإلى إعادة الجزائر المستقلة إلى منهاج الإسلام في الإصلاح!

• وبالرغم من أن هذا الإمام العظيم لم يتفرغ لتأليف الكتب.. لأنه - كما قال - : « لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده. وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلمًا عربيًا، وصححت له موازين إدراكه. فأصبح إنسانا أبيًا. وحسبي هذا مقربا من رضا الرب ورضا الشعب ».

بالرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة - تربية الرجال وإيقاظ الأمة - فلقد ترك من الآثار العلمية: (عيون البصائر) و (الاطراد والشذوذ في اللغة) و (أسرار الضمائر العربية) و (التسمية بالمصدر) و (كاهنة أوراس) و (رسالة الضب) و (قصيح العربية من العامة الجزائرية) و (أرجوزة) - في (٣٦) ألفًا من أبيات الشعر، ضمنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته.. أما مقالاته، فإنها قد جمعت فكونت خمس مجلدات، قاربت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة.

* * *

• هذا هو الإمام محمد البشير الإبراهيمي.. الذي لم يرث مالًا.. ولم يتموّل أموالًا.. والذي عاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ».. والذي كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة!.. محتفظًا بالحرية والاستقلال عن أصحاب الثروة والسلطان.. سالكًا في ذلك طريق العلماء الأعلام - الذين لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا - مكتفين بالعلم والجهاد، أسوة بالنبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقًا.

وهو الذي قال فيه صديقه ورفيق دربه الإمام عبد الحميد ابن باديس - بعد إقرار لائحة « جمعية العلماء » - التي كتبها الشيخ البشير - سنة (١٣٤٩هـ/١٩٣١م) -:

« عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يخزى في دنيا، أو يذل لاستعمار »!!..

عليه رحمة الله.

* * *
* *
*

(٢)

المنهاج الإسلامي في الإصلاح

للإصلاح - في الرؤية الإسلامية - منهاج متميز عن نظائره في كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التي انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام.

• فالإصلاح الإسلامي ليس تغييرًا جزئيًا ولا سطحيًا، وإنما هو تغيير شامل وعميق، يبدأ من الجذور، ويمتد إلى سائر مناحي الحياة.. بل إنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، وإنما يجعل من صلاح الدنيا السبيل إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا.

• وهو لا يقف عند «الفرد» - كما هو الحال في المذاهب «الفردانية» - كما أنه لا يهمل الفرد، مركزًا على «الطبقة» - كما هو الحال في كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية اليسارية - الوضعية والمادية -.. وإنما يبدأ - الإصلاح الإسلامي - بالفرد، ليكون منه الأمة والجماعة.. فالإسلام دين الجماعة.. والجماعة أشمل وأوسع من الطبقة -.. وبدون صلاح الأفراد لن يكون هناك صلاح حقيقي للأمم والجماعات.. ولهذه الحقيقة من حقائق الإسلام جمعت التكاليف الشرعية الإسلامية بين «الفردي» و«الاجتماعي» - الكفائي - لأن

صلاح الفرد هو الذي يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية، والمشاركة في العمل العام.. الذي تعود ثمراته على الجماعة - المكوّنة من الأفراد -.. بل لقد رفع الإسلام مقام التكاليف الاجتماعية فوق مقام التكاليف الفردية، عندما جعل إثم التخلف عن التكليف الفردي مقصورًا على الفرد وحده، بينما إثم التخلف عن التكليف الاجتماعي شامل للأمة جمعاء.. بل ورفع الإسلام ثواب التكاليف الفردية إذا هي أُدّيت في جماعة واجتماع.

ولهذه الحقيقة، كانت رهبانية الإسلام هي الجهاد.. أي بذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة في أي ميدان من ميادين العمل الصالح في الحياة.. فالجهاد ليس العمل القتالي وحده.. والرهبانية - في الإسلام - هي على العكس من العزلة الفردية التي تدير ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام.

• ولعلاقة لمقام الإصلاح - بهذا المعنى - في الإسلام، تحدث عنه القرآن الكريم باعتباره « سنة » من سنن الله ﷻ و « قانونًا » من قوانين الاجتماع الحضاري، لا تبديل له ولا تحويل.. فالتغيير الإصلاحي لا بد أن يبدأ من « الذات » ليشمل « الذوات »: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

• ولأن الإصلاح « سنة »، لها قوانينها، كانت له « دورات » تصل ما انقطع، وتجدد ما رثّ، وترتفع بالأمم والحضارات من التراجع والانحطاط، فتعيدها إلى دورات التقدم من جديد.. وعن هذه الناحية من سنن الإصلاح يحدثنا رسول الله ﷺ فيقول: « لا يزال الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله - تبارك وتعالى - بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره »(١).

• كذلك حدثنا القرآن الكريم عن أن الصلاح والإصلاح قد كان سنة جميع النبوات والرسالات، وطريق سائر الأنبياء والمرسلين.. فنقطة البدء في سائر الشرائع السماوية هي « الإيمان » الذي يعيد صياغة الإنسان صياغة إيمانية.. والذي يتجلى - من ثم - في العمل الصالح والمصلح لكل ميادين الحياة.. فبداية الإصلاح إنما تبدأ بالصلاح الذي تتغير به الجذور والأصول والمنطلقات والمبادئ والهويات والفلسفات والثقافات، ورؤية الإنسان للكون، وموقعه من هذا الوجود، ورسالته فيه، ليتحول هذا الصلاح إلى إصلاح شامل لكل ميادين الفروع في سائر مناحي الحياة.

هكذا كانت دعوة رسول الله شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ

---

(١) رواه الإمام أحمد.

وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[هود: ٨٤ - ٨٦].

فنقطة البداية في الإصلاح الشامل هي الإيمان الذي يعيد صياغة الإنسان، ليمتد الإصلاح بعد ذلك إلى الفروع والسياسات والاجتماعيات والاقتصاديات والعلاقات.

وعلى الضد من هذا المنهاج - في الصلاح والإصلاح - كان موقف الكافرين من أهل مدين - قوم شعيب -.. فلقد استنكروا وجود علاقة - « عضوية.. وجدلية » - بين الإيمان والصلاة وبين ما كانوا يمارسون في فروع حياتهم ومعاملاتهم الاقتصادية والاجتماعية من مظالم جعلوها ثمرات للحرية الفردية المطلقة في هذه الميادين.. ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

لكن شعيبا عليه السلام عاد ليؤكد لهم أن دعوته هي الطريق الحق للصلاح والإصلاح.. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

• وفي سورة المزمل - المكية - رسم القرآن الكريم لخاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ منهاج الرياضات والمجاهدات الروحية التي تحقق صلاح الإنسان، والتي تفجر فيه الطاقات والإمكانات التي تجعل هذا الإنسان - وهو الجرم الصغير - العالم الأكبر، القادر على حمل المهام الثقال في مختلف ميادين الإصلاح.. فبهذه الرياضيات والمجاهدات، التي تعيد صياغة الإنسان صياغة إسلامية، يكون هذا الإنسان - الذي خلق ضعيفًا - هو الأشد وطأً والأقوم قيلًا.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٦].

وعلى امتداد المرحلة المكية - ثلاثة عشر عامًا - أي أكثر من نصف عمر الرسالة - كانت الصناعة الثقيلة التي أقامها رسول الله ﷺ هي إعادة صياغة الإنسان، بإقامة الأصول، وتجسيدها في القلة المؤمنة.. وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم - مدرسة النبوة - والمؤسسة التربوية الأولى في تاريخ الإسلام - كانت صياغة القلوب والعقول بحقائق القرآن وقيم الإسلام.. فلما تكوّن الجيل القرآني الفريد، وتبلورت الجماعة والأمة التي صنعها الرسول ﷺ على عينه، جاءت - بعد الهجرة - مرحلة النشر والانتشار للإصلاح في ميادين الفروع.. جاءت الدولة.. والسياسة.. والجيوش.. والفتوحات.. والنظم والمؤسسات..

والقوانين.. والعلاقات الدولية - إلى آخر ميادين فروع الإصلاح.. لقد تقدمت « الدعوة » على « الدولة ».. وتقدم تغيير « النفس » على تغيير « الواقع ».. ولذلك كان التغيير منطقيًا.. وحقيقيًا.. وراسخًا كل الرسوخ.

وإذا كانت « **الأمة العامة** » - التي اعتنقت الإسلام، عند وفاة رسول الله ﷺ قد بلغ تعدادها (١٢٤,٠٠٠).. فإن « **الأمة الخاصة** » - التي مثلت الأعلام والقيادات والريادات والصفوة التي تخرجت في مدرسة النبوة، قد أحصى العلماء عددهم في نحو ثمانية آلاف - منهم أكثر من ألف امرأة - جاءت تراجمهم في الأسفار التي رصدت أعلام الصحابة، الذين صنعوا وقادوا - من حول الرسول ﷺ أعظم نماذج الصلاح والإصلاح في تاريخ النبوات والرسالات.

• وإذا شئنا إشارات - مجرد إشارات - إلى عِظَم الطاقات والإمكانات التي يفجرها هذا المنهاج الإسلامي في الإصلاح - تغيير الجذور والمنطلقات والتصورات والفلسفات، بالإيمان الذي تجسده وتنميه المجاهدات الروحية - ليتجلى بعد ذلك صلاحًا وإصلاحًا في سائر ميادين الفروع في جميع مناحي الحياة - إذا شئنا إشارات دالة على صنيع هذا المنهاج في الإنسان - الذي كان في أغلبه بدويًا.. وجاهليًا.. وأميًا.. وفظًا غليظًا - فعلينا أن نقرأ ما قاله الصحابي جعفر بن أبي طالب (٨هـ/٦٢٩م) للنجاشي - ملك الحبشة - واصفًا حال هذه الجماعة إبان

جاهليتها، وبعد الصلاح الذي صنعه بها الإسلام.. لقد قال: « أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى، فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك »[1].

---

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (٢/٥١٩)، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، طبعة القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

هكذا صنع الصلاح والإصلاح هذا التغيير الجذري والعميق والشامل في نفوس هذه الجماعة المؤمنة، التي ولدت من رحم القرآن الكريم.

ثم.. لننظر ما صنع الإصلاح الإسلامي بالصحابي حاطب ابن أبي بلتعة (٣٥ق.هـ - ٣٠هـ/٥٨٦ - ٦٥٠م) الذي حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى « المقوقس » عظيم القبط بمصر - (٧هـ/٦٢٨م) - والوارث لمواريث أقدم حضارات الدنيا وأعرقها.

لقد بدأ المقوقس حواره مع حاطب بالتحدي والتساؤل الاستنكاري، المتسائل عن صدق نبوة محمد وسلطان نبوته ﷺ فقال - لحاطب -:

« ما منعه - (أي الرسول) - إن كان نبيًا - أن يدعو عليّ فيسلّط عليّ؟!

فكان جواب حاطب:

منعه ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبي عليه أن يُفعَل به ويُفعل!

- (فوجم المقوقس ساعة - أي فترة - ثم استعاد إجابة حاطب.. فأعادها عليه حاطب.. فسكت المقوقس) -.

وهنا استأنف حاطب محاورة المقوقس، فقال:

- إنه قد كان قبلك رجل - (يشير إلى فرعون موسى) -

زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به - (أي من الذين استخفهم فأطاعوه) - ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك!

وإن لك دينا - (أي النصرانية) - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما سواه وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به » [1]!

إن الناظر في حوار « البدوي » حاطب بن أبي بلتعة هذا مع المقوقس، إذا سأل نفسه:

- من علّم حاطب هذه الفلسفات - في الدين.. والدنيا.. وفي الحرية.. والتاريخ -؟.. ومن الذي أقدره على أن يكثفها في كلمات، هي عصارات للحكمة العالية؟؟

إن الناظر في ذلك، والسائل عنه، لا بد أن تتفتح أمام بصيرته وبصره معالم المنهاج النبوي في الصلاح والإصلاح، ذلك الذي بدأ بالأصول، وبالنفس والذات، ليسلك هذه الذات في سلك الجماعة والأمة والمجموع والاجتماع، ليقيم بها وعليها الدولة والسياسة والنظم والمؤسسات والعلاقات.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها (ص ٤٦)، طبعة ليدن (١٩٢٠م)، و: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (ص ٧٢، ٧٣)، طبعة القاهرة (١٩٥٦م).

وإشارة أخرى دالة على « النوع » و « الكيف » الذي أثمره هذا المنهاج النبوي في الإصلاح على جبهة صناعة الإنسان.. تتجلى في كلمات الراشد الثاني، الفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ق.هـ - ٢٣هـ/٥٨٤ - ٦٤٤م) عندما أرسل مع عمرو ابن العاص (٥٠ق.هـ - ٤٣هـ/٥٧٤ - ٦٦٤م) (٤,٠٠٠) جندي ليفتح بهم مصر.. فلما وصل عمرو وجيشه إلى « حصن بابليون »، وعلم أن بمصر (١٢٠,٠٠٠) جندي من خيرة جنود الرومان، يتدرعون بأوفر العدد والعتاد وأكثرها قوة وفتكا، ويتحصنون - كما يقول ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ/٨٧٠م) - في حصون وراءها حصون وراءها حصون!!.. عندئذ، طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطاب مددًا، لهذه المعركة الفاصلة، التي قال عنها « هرقل » (٦١٠ - ٦٤١م) - قيصر الروم -: « إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم »!.. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول له: « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل. على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام الألف - الزبير بن العوام (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ/٥٩٦ - ٦٥٦م) والمقداد بن عمرو بن الأسود (٣٧ق.هـ - ٣٣هـ/٥٨٧ - ٦٥٣م) وعبادة بن الصامت (٣٨ق.هـ - ٣٤هـ/٥٨٦ - ٦٥٤م) ومسلمة بن مخلد (١ - ٦٢هـ/٦٨٢م) - وقيل خارجة ابن حذافة (٤٠هـ/٦٦٠م).. - ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة »[(١)]

---

(١) فتوح مصر وأخبارها (ص ٦١).

هكذا بلغ الوزن والنوع والكيف لخريجي مدرسة النبوة ومنهجها في الإصلاح.

* * *

وهذا المنهاج الإسلامي في الإصلاح، هو الذي بعثته وجددته وبلورته ودعت إليه مدرسة الإحياء الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي - مدرسة جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م) والأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ - ١٩٠٥م).. والذي تبنته وطبقته « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » التي أسسها وقادها الإمامان العظيمان الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٣٠٨ - ١٣٥٩هـ/١٨٨٩ - ١٩٤٠م) والشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ/١٨٨٩ - ١٩٦٥م).

وإذا كنت قد سبق لي وكتبت دراسة عن الإمام ابن باديس - قبل أكثر من ثلث قرن - [1].. فإن هذه الصفحات هي وفاء بدين البشير الإبراهيمي على صاحب هذا القلم، الذي يسطر هذه الكلمات [2] وفاء للإمام البشير، الذي جمع إلى العلم

(١) د. محمد عمارة: مسلمون ثوار، ص ٤٥٩ - ٤٩١، طبعة القاهرة (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٥/١٦٣ - ١٧٠، ٢٧٢ - ٢٩١)، جمع وتقديم د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت (١٩٩٧م).

والعمل الجهادي، وفاءً عظيمًا ونادرًا للأئمة الذين تربى في مدرستهم الفكرية، وعلى منهجهم الإصلاحي.. جمال الدين الأفغاني.. والأستاذ الإمام.. والذي شهد شهادة صدق على أستاذية الإمام محمد عبده لحركة الإصلاح في المغرب العربي.. وأفاض في الحديث عن امتدادات هذه المدرسة الإصلاحية في الإحياء الإسلامي بالجزائر على وجه التحديد.. فشهادته - في هذا المقام - دليل على البعد العالمي لهذه المدرسة.. وعلى تخطيها حدود مصر إلى مختلف آفاق عالم الإسلام.

فكما جسدت هذه المدرسة النموذج الإسلامي في الإصلاح، كذلك جسدت عالمية الإسلام.

* * *
* *
*

(٣)

إمام في مدرسة الأئمة

وإذا كانت الجزائر قد شهدت العديد من العلماء، والعديد من الثوار، على امتداد تاريخها مع الاستعمار الفرنسي.. ذلك التاريخ الذي امتد من جهاد إمامها الأكبر الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ/١٨٠٧ - ١٨٨٣م) وحتى جهاد الإمامين عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي.. فإن ما تميزت به الحركة الإصلاحية التي جسدتها « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » هو استدعاء المنهاج الإسلامي في الإصلاح، والانطلاق من معالمه التي بعثها وجددها في عصرنا الحديث - أئمة الإحياء والتجديد: جمال الدين الأفغاني.. والأستاذ الإمام محمد عبده.

وهذه هي العلامة الفاصلة.. والسمة البارزة.. والقسمة المميزة لمنهاج جمعية العلماء عن غيرها من الدعوات والثورات والأحزاب التي شهدتها الساحة الجزائرية في مواجهة الاستعمار.

لقد ركز الاستعمار الفرنسي - في الجزائر - على مسخ وتسخ الأصول المميزة للإنسان الجزائري.. أصول:

- الإسلام.. الذي هو دين الأمة.

• والعربية.. التي هي لسان الدين والأمة.

• والوطنية.. التي تفصل المستعمَر عن المستعمِر، والتي تحول بين الشعب الجزائري وبين الذوبان والاندماج في فرنسا.

ولأن المنهاج الإسلامي في الإصلاح، هو المنهاج الذي يبدأ من الأصول، ليبلغ بعد ذلك كل ميادين الفروع.. ولأنه هو المنهاج الذي صلح به أول هذه الأمة، وبه - وحده - يكون صلاح آخر هذه الأمة.. كان اختيار « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » لهذا المنهاج في الصلاح والإصلاح.. وكانت تلمذتها فيه على الأئمة الذين قادوا - بهذا المنهاج - حركة الإحياء والإصلاح في العصر الحديث.. وخاصة الرائد المؤسس جمال الدين الأفغاني.. والمهندس الأكبر والمصلح الأعظم في هذه المدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وعلى هذه الحقيقة يشهد هذا الإمام العظيم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ذلك الإمام الذي تربى في مدرسة هؤلاء الأئمة العظام.. والذي صاغ مشروع « جمعية العلماء »، التي وضعت هذا المنهاج في الممارسة والتطبيق.. فصنعت الجيل الذي فجر الثورة الجزائرية (١٣٧٤هـ/١٩٥٤م)، التي اجتذبت إلى ساحتها طلاب الفروع وأجناده.. والتي انتزعت بدماء الشهداء استقلال الجزائر من براثن الاستعمار الصليبي الفرنسي.

يشهد الشيخ البشير على هذه الحقيقة عندما يفصّل القول

في الاعتراف بأستاذية الأفغاني ومحمد عبده في تحديد معالم المنهاج الإصلاحي، الذي جعل الأولوية:

- للإصلاح الديني والعلمي والتعليمي.
- وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي في التعامل مع القرآن الكريم، باعتباره النص المقدس والمؤسس للدين.. والأمة.. والحضارة..
- وصولاً إلى الإصلاح السياسي، الذي يبدأ بالأصول والجذور واللباب، حتى يبلغ الفروع - التي يخطئ البعض عندما يحسبونها جماع السياسات -!..

* * *
* *
*

(٤)

في الإصلاح الديني.. والعلمي.. والتعليمي

لقد جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م)، لا ليجعل منها مجرد مستعمرة، يحتل فيها الأرض وينهب الثروات، ويغرب العقول بالقدر الذي يؤبد به احتلال الأرض ونهب الثروات.. وإنما جاء طامعًا فيما هو أكبر من ذلك وأخطر.. جاء ليجعل الجزائر امتدادًا لفرنسا عبر البحر المتوسط.. قطعة من فرنسا في الدين واللغة والهوية والحضارة.. ولذلك كانت حربه الشرسة والضروس ضد أصول الشعب الجزائري.. ضد الإسلام الذي انتزع الجزائريين من النصرانية الرومانية.. وضد العربية، التي جاء بها الإسلام إلى الجزائر.. وضد القانون الإسلامي الذي أخذته الجزائر عن فقه إمام دار الهجرة مالك ابن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ/٧١٢ - ٧٩٥م) ﷺ.

إلى هذا الحد بلغ سقف الطموح الاستعماري الفرنسي على أرض الجزائر بالذات.. فهو يريد تخطي أعناق القرون الإسلامية في التاريخ الجزائري، ليعود بها إلى النصرانية بدلًا من الإسلام.. وإلى الفرنسية بدلًا من العربية.. وإلى قانون نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١م) بدلًا من فقه الإمام مالك.. ولهذا كانت كل

سياساته الاستعمارية « الثمرات الفرعية » التي ولدتها حربه الضروس ضد هذه الأصول.

ولهذه الحقيقة - التي غفل عنها الكثيرون من « علماء الفروع » - انطلقت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » من المنهاج الإسلامي للإصلاح، ذلك الذي يبدأ بالأصول، وصولاً منها إلى الفروع، وهو المنهج الذي توفرت على بعثه وتجديده مدرسة الإحياء التي أسسها جمال الدين الأفغاني.. وهندس بناءها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

● وإذا كانت فرنسا الاستعمارية - كي تنزع روح الجهاد والفداء من قلوب الجزائريين وعقولهم.. وكي تنسيهم حقيقة أن الله ﷻ قد أراد لهم أن تكون عزتهم من عزة الله وعزة رسوله ﷺ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] وجعلهم الأعلين على كل صنوف الكفر والشرك - بالإيمان والتقوى - ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إذا كانت فرنسا - كي تصل إلى هذه المقاصد.. مقاصد الهزيمة النفسية للجزائريين - قد صنعت على عينها - من « الطرقية » - « علماء » يبشرون بأن هذا الذي صنعته وتصنعه فرنسا - بالجزائر - هو من قضاء الله وقدره - لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد - متجاهلين أن الإسلام تميز في قضاء الله بين القضاء

التكويني الحتمي ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢].. وبين القضاء الذي معه حرية وإرادة وتخيير ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣].. ومتجاهلين أن الاستعمار الظالم – حتى لو تجسد في أرض الواقع – فإنه لا يمكن أن يكون قضاءً إلهيًا حتميًا، نسلم به ونستسلم له، وإنما هي سنن التدافع بين الحق والباطل التي لا بد من مجابهتها ومجاهدتها كي لا تفسد الأرض بما صنع الظالمون ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

صنعت فرنسا من « الطرقية » – وليس من الصوفية – « علماء » يزيفون أصول الإسلام، لزرع الهزيمة النفسية في الشخصية الجزائرية، ولكسر شوكة العزة والجهاد في نفوس الجزائريين.

ولذلك كان الإحياء الديني – في ميدان العقائد – والإصلاح والتجديد لأصول الهوية الإسلامية بالعلم والتعليم، هو سبيل « جمعية العلماء » لاجتثاث كل الفروع الفاسدة التي حاولت فرنسا تغذيتها من الإفساد الذي حاولت به تخريب أصول الإسلام.

ومن هنا كان الاستلهام – في « جمعية العلماء » – لمنهاج الإمام محمد عبده وأقرانه في الإصلاح.. وبعبارة الإمام البشير:

« إن المتتبع لتاريخ هؤلاء الدجالين – (الطرقية) – يجدهم

لم يخلوا من التحرق على الإصلاح والتنكر له في جميع أطواره وعلى اختلاف مظاهره، فقد كانوا متنكرين له وهو جنين، فلما ظهر في الأفراد ازدادوا له تنكرًا وعليه نقمة. فلما ظهر في شكل جمعية أجمعوا أمرهم وشركاءهم لحربه بهذه المكائد.

ألم تعلموا أنهم قبل أن يظهر الإصلاح بهذا الوطن وتلهج الألسنة باسمه كانوا يلعنون ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) وابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦هـ/٩٩٤ - ١٠٦٤م) ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ - ١٩٠٥م) وغيرهم من أئمة الإسلام الذين جهروا بإنكار البدع. فلما ظهر الإصلاح بالمظهر الفردي كان أمضى سلاح يقاومونه به قولهم: تيمي، عبداوي !(١)

* * *

فالإصلاح الديني، بواسطة العلماء المخلصين، هو الذي يجعل لصولة العلم الأولية والغلبة على صولة الملك.. وهو الذي يجعل للعلم سلطة وسلاطين يغالبون ويغلبون سلاطين الجور والفساد.. وهو الذي يجعل تجديد الدين السبيل إلى تجديد الدنيا.. وهو الذي يهيئ النفوس - ومن ثم المجتمعات - لتقبل السياسات والقوانين والنظم وبرامج الأحزاب والحكومات.. لأنها جميعًا آليات لإشاعة الأصول وترسيخها في المجتمعات.. وما إليها

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (١/١٣٢).

بعكس هذا المنهاج – أي تقديم الفروع على الأصول.. والاكتفاء بسياسات الفروع عن تجديد الثوابت وتأكيد الهويات – إلا حرثٌ في البحر، ونقشٌ على الماء، وبناء في الهواء، مهما حسنت نوايا الذين ينحرفون إلى هذا السبيل!

وفي ذلك كله فصّل الإمام البشير معالم طريق الإصلاح الذي سلكته « جمعية العلماء »، معترفًا – بتواضع العلماء والأئمة الأعلام – أن الريادة والقيادة في هذا المنهاج إنما كانت لمدرسة الأفغاني والأستاذ الإمام.

لقد كتب – عليه رحمة الله –:

« لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع ميادينه. فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة. وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يذعّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه. ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١هـ/ ٧٨٠ – ٨٥٥م)؛ وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام (٥٧٧ – ٦٦٠هـ/ ١١٨١ – ١٢٦٢م).. وإن موقف هذين الإمامين

من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما لآية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

وما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحرمناه - بسوء تربيتنا - من خلالهم.. ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشُّعل لم تنطفئ، فهي في كنف القرآن آمنة. وما دامت نفحات القرآن تلامس العقول الصافية، وتلابس النفوس الزكية، فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب.

وما زلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجمًا يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتًا يخرق، من عالم يعيش شاهدًا، ويموت شهيدًا، ويترك بعده ما تركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين.

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفّينا آثارهم من علماء الإسلام، مثلاً شرودًا في شجاعة النزال بعد الحافظ (الربيع بن سالم)، عالم الأندلس، بل أعلم علمائها في فقه السنة لعصره، فقد شهد وقعة تعد من حوامد الأعمار، تهذ الأبطال المساعير، وتقدم الصفوف مجليًا محرضًا، والحرب تقذف تيارًا بتيار، حتى لقي ربه من أقرب طريق.. ولا علمنا فيهم مثالاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية، فقد شنها حربًا شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخًا

وشموخًا، وأكثر أتباعًا وشيوخًا، يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأولون...

ولقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده، فهز النفوس الجامدة، وحرك العقول الراكدة، وترك دويًا ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن.. »[1].

إنه طريق العلماء المجددين، الذين تخطوا حدود الاجتهاد بمعناه الفقهي إلى تجديد دنيا الأمة بتجديد دينها، والذين امتلكوا الشجاعة التي جعلت منهم « الشهود.. والشهداء ».. طريق الإمام أحمد بن حنبل.. والعز بن عبد السلام.. والربيع ابن سالم.. وابن تيمية.. وصولًا إلى الإمام محمد عبده « الواحد الذي بذ الجميع » والذي - بظهوره - « تأذن فجر الإسلام بالانبلاج » من جديد!

* * *

• وفي (١٩٥٧م).. يكتب الإمام البشير إلى الذين يحتفلون بذكرى جمال الدين الأفغاني - بجمعية الشبان المسلمين.. بالقاهرة -.. يكتب عن أستاذية الأفغاني في المدرسة الحديثة للإصلاح بالإسلام، فيقول:

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (١١٢/٤، ١١٣).

« إن من البر بأنفسنا أن نذكر - مع كل شارقة - عظماءنا ومصلحينا الذين كان لهم أثر مشرق في تاريخنا، وأن نحيي ذكرياتهم لنحيا بها، ونأخذ العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أعوزنا الإمام القائد.

العلماء الربانيون في هذه الأمة ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، والحكمة في هذه القلة قلة أخرى، لا تلد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد، ولا يجيء الواحد إلى الوجود إلا بعد فترة من تحكّم الأهواء واستيلاء الخمول، وسفه القيادة، والبعد عن هداية الدين، والجهل بأمور الدنيا وبالصلة الوثيقة بينها وبين الدين، وانطماس المعالم المنصوبة والأعلام الهادية فيهما، فيكون ظهوره تجديدًا للدين والدنيا معًا، ودعوة للعزة فيهما معًا، وإصلاحًا لما أفسدته الغفلة منهما معًا، ورتقًا لما تشعث من بنائهما معًا. ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني.

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم، على أنه ليس عالمًا دينيًا بالمعنى الذي يفهمونه من الدين ومن العالم الديني، الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام وفي الزهد والرقائق بكلام مقطوع الصلة بالقلب، مقصور على اللسان، فهو لا يؤثر، ومن ثم فهو مقصور على سمع السامع فهو لا يتأثر، وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس

منه: قلت، ولا ارتأيت، ولا فكرت، حتى إذا فرغ من الكلام فرغ كل شيء عنه. وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يهتز لها هزة الغضب، ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة، والأفكار المشرقة، والبصائر النيرة، والموازين الصحيحة للرجال، فإنهم يرون الأفغاني عالمًا أي عالم، وفردًا انطوى على عالم، وحكيمًا أي حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الديني وأعاد سيرتها الأولى.

... لقد كان الأفغاني عالمًا شجاعًا، قوالًا للحق جريئًا فيه، لا يخشى في كلمة الحق يقولها ولا في الحق يدعو إليه لومة لائم، وجميع الثغر التي أتينا منها فعلة العلل فيها آتية من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شئون المسلمين العامة.

وقد جزاه الله في الدنيا جزاء عاجلًا: فرزقه طرازًا من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، ورباهم على مبادئه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده.

لقد اقتحم جمال الدين هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء، وحجة على بعضهم.

رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين.

وكفاء ما سنه للعلماء من أُسْى حسنة لم تزل تتقلب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها »[1].

هكذا ميز الإمام البشير بين « علماء الرسوم » الذين لا قلوب لهم، ولا حكمة فيهم، ولا شجاعة لديهم – والذين رسم لهم الأفغاني صورة « كاريكاتورية » عندما وصف الواحد منهم بأنه: « جبة كالخرج، وعمامة كالبرج، ورأس فارغة »!!-.. ميز الإمام البشير بين هذا الصنف من « العلماء » وبين « العلماء الحكماء » الذين يجددون الدنيا بتجديد الدين.. وتحدث عن مكانة الأفغاني بين هؤلاء العلماء الحكماء.. وعن غرسه الطيب، المتمثل في الإمام محمد عبده.. وعن دَيْن هذه المدرسة الإصلاحية على حركات الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث.

* * *

لقد كان واضحًا كل الوضوح، في فكر الإمام البشير.. ومنذ فجر جهاد « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو « المصلح العظيم ».. و « إمام المصلحين » و « أعجوبة الأعاجيب ».. و « صاحب التأثير الأكبر في حركة الإصلاح الجزائرية ».. ولقد كتب – في تقرير هذه الحقيقة (١٩٣٥م):

« إنه لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (٥/١٩٣، ١٩٤، ١٩٦).

بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتًا وأبعدهم صيتًا في عالم الإصلاح؛ فلقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح والتماس هديه من كتاب الله وسنة نبيه، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما. مبينًا بصوت يسمع الصم، وبلاغة تستنزل العصم، أن علة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطهم عن تلك المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن هي بعدهم عن ذلك الهدي الروحاني الأعلى، وأنه لا يرجى لهم فلاح في الدنيا ولا في الآخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المآل، ولا عزة جانب، ترد عنهم عادية الغاصبين من الأجانب، إلا إذا راجعوا بصائرهم، واسترجعوا ذلك الهدي الذي لم يغصبه منهم غاصب، وإنما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالاضطرار، فباءوا بالمهانة والصغار، والضعة والخسار.

كانت تلك الصيحة الداوية من فم ذلك المصلح العظيم صاخة لآذان المتربصين بالإسلام، ولآذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات وعبدة الأجداث والأنصاب، ولآذان الجامدين من العلماء.. وجموا لها وملكتهم غشية الذهول علمًا منهم أن أول آثارها إذا تغلغلت في النفوس هو قطع الطريق على المتربصين وهدم سلطان المبطلين الزائف، ومكانتهم الكاذبة، وجاههم الخادع، وجفاف المراعي الخصبة

التي كانوا يسيمون فيها شهواتهم ولذاتهم، وتنضوب المنابع الروية من المال الذي كانوا يعلّون منها وينهلون.

ولقد وقفوا بعد زوال تلك الغشية صفًا واحدًا في وجه ذلك المصلح يجادلونه بالبهت، ويكايدونه بالإفك، وألبوا عليه الألسنة والأقلام، ووقفوا له بكل مرصد، ورموه بكل نقيصة، فلم ينالوا منه نيلًا إلا قولهم: إنه كافر، وهنة وهنة، وهذه هي النغمة المرددة التي كان فقهاء الجيل البائد في وطننا هذا وفي غيره يرددونها مقرونة بالسب واللعن، وقد ورثها عنهم أهل هذا الجيل واشتقوا منها اشتقاقات غريبة، وهي أسلحتهم التي يقذفون بها في وجوه المصلحين كلما أعيتهم الحجة، وأعوزهم الدليل.

وكان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية ونفوذ النظر وعمق التفكير وحدّة الخاطر واستنارة البصيرة وسرعة الاستنتاج واستشفاف الخبآت: حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى.

منقطع النظير في صدق الإلهام وسداد الفهم، وصدق العزيمة وخصب القريحة، واستقلال الفكر، ونصاعة الاستدلال، وتمكين الحجة.

موفور الحظ من طهارة الدخيلة، والانطباع على الفضيلة، مستكمل الأدوات من فصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وفرطسة الفراسة، ودقة الملاحظة، وسلامة العبارة، ومطاوعة البديهة، ورباطة الجأش، وكبر الهمة الخطابية، وقوة العارضة في البيان، واتساع الصدر لمكاره الزمان وأهله.

حجة من حجج الله في فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفي البصر بسنن الله في الأنفس والآفاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقائصه.

وبالجملة، فالرجل قد من الأفذاذ الذين لا تكوّنهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود وتبرزهم حكمته في فترات متطاولة من الزمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهرًا من مظاهر رحمة الله بعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحًا شاملاً، وخيرًا عميمًا.

ولو أن قول الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله

إن الزمان بمثله لبخيل

لم يبتذله المترجمون للرجال بوضعه في غير موضعه، حتى صاروا ينشدونه في حق أشخاص يتكرم علينا الزمان بمئات من مثلهم في جيل، لولا هذا الابتذال السخيف لهذا البيت لقلنا: إن أحق رجل بانطباقه وصحة إطلاقه هو الأستاذ الإمام. فرضي الله عن الأستاذ الإمام.. » [1].

وبعبقرية حضارية، يلمح الإمام البشير ما بين « العبقرية العلمية » وبين « عبقرية المكان » الذي ظهرت فيه، فتغذت منه،

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (١/١٧٧، ١٧٨).

واستفادت من تأثيراته على ما وراءه من آفاق.. يلمح هذا البعد الحاكم في تأثيرات دعوات الإصلاح، فيتحدث عن « عبقرية مصر »، التي تجلت في تأثيرات هذه المدرسة الإصلاحية على ما وراء مصر من البلاد.. فيقول:

« وسبحان من قسم الحظوظ بين الجماعات فأعطى كل جماعة حظًا لا تعدوه، وفرّق الخصائص على البقاع فخص كل بقعة بسرّ لا يعدوها، فما زلنا نستجلي من صنع الله لك - (يا مصر) - وللإسلام لطيفة سماوية. وهي أنه كلما رثّت جدّة الإسلام، وخالطته المحدثات، سطع في أفق من آفاقه نجم يهدي السارين إلى سوائه، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته، ثم لا يلبث ذلك النجم أن يخبو، وذلك الصوت أن يخفت، إلا نجمًا سطع في أفقك - (يا مصر) - وصوتًا ارتفع في أرجائك، وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الديني في أقطار الإسلام، وفي حقب معروفة من تاريخه، فضاعت بين صجيج المبطلين، وعجيج الضالين، إلا صوت محمد عبده، فإنه اخترق الحدود وكسر السدود.. » [١].

* * *

كما يعترف الإمام البشير - بصدق العالم العامل - بأن الدعوة الإصلاحية الجزائرية، التي تجسدت في « جمعية العلماء

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (٣/٤٩٦، ٤٩٧).

المسلمين الجزائريين »، إنما هي رافد من هذا النهر العظيم في الإصلاح.. وأثر من آثار المنهاج الإصلاحي الذي جاء به الإسلام، والذي جدده وهندس بناءه وأعلا صرحه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في عصرنا الحديث.. يقرر هذه الحقيقة، ويعلنها فيقول - تحت عنوان « نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر »:

« إن التأثير الأكبر في تكوينها يرجع إلى عدة عوامل:

أولها: نوازع جزئية محدودة أحدثتها في النفوس المستعدة الأحاديثُ المتناقلةُ في الأوساط العلمية عن الإمام محمد عبده، ولو من خصومه الممعنين في التشنيع عليه وسبه ولعنه - وما أكثرهم بهذا الوطن! - فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير، وتكييفها تكيفًا جديدًا، وتغريها أولًا بالبحث عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرجل، فإذا علمت أن منشأ ذلك دعوته إلى القرآن، أو ادعاؤها الاجتهاد - كما كانوا يقولون - قرب هذا الاسم منها، فأحبته، ولجت في الانتصار له، وإن لم تتبين مشربه كل التبين.

ثانيا: ويضاف إلى هذا العامل قراءة (المنار) - على قلة قرائه في ذلك العهد - واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية، وابن القيم (٦٩١ - ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) والشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ/

١٧٦٠ - ١٨٣٤م). فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية »[1].

« .. لقد نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة، وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها. وكأن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتًا بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بيانًا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدهم رأيًا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملًا جديًا في ذلك »[2].

هكذا شهد الإمام البشير - شهادة العالم العامل الخبير بإمامة الشيخ محمد عبده لدعوة الإصلاح الديني والعلمي والتعليمي - في عالم الإسلام - بالعصر الحديث.

* * *

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (١٠/١٨١).

(٢) المصدر السابق (١/٣٤٢، ٣٤٣).

(٥)

المنهاج المعجزة
في تفسير القرآن الكريم

ولأن القرآن الكريم هو الإعجاز الخالد المتحدي، الذي تعهد الله بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].. ولأن الجهاد به هو الجهاد الكبير ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].. ولأنه قد جمع خبر الأولين ونبأ الآخرين، حتى أنه لا تنقضي عجائبه.

ولأن أعداء الأمة الإسلامية – وفي طليعتهم « الصليبية الفرنسية » في الجزائر، قد أدركوا خطر القرآن الكريم في البعث والتجديد للهوية الإسلامية بالجزائر، فقالوا – بلسان أحد قادتهم أثناء الاحتفال بمئوية احتلالهم للبلاد (١٩٣٠م) –: « إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم »!!

ولما للقرآن الكريم – بالنسبة للبعث الجزائري – من تمثيله جماع الإحياء الديني.. واللسان العربي.. والعزة الوطنية والقومية.. والإعجاز الدائم أبدًا في خلق الإنسان السوي والمجتمع السوي على امتداد الزمان والمكان – لكل ذلك، كان استمداد « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » – في مشروعها

الإصلاحي - منهاج الإمام محمد عبده، الذي مثل نموذج الإحياء الحقيقي في تفسير القرآن الكريم.. فهو « المنهاج المعجزة.. والتفسير لمعجزات القرآن »، الذي رسم معالمه محمد عبده.. ودوّنه رشيد رضا.. وأكمله عبد الحميد بن باديس.

وعلى هذه الحقيقة يشهد الإمام البشير فيقول:

« .. إن هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم في الأقطار الإسلامية، يشير بقرب رجوع المسلمين إلى هداية القرآن الكريم، لأن هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب الله وتفهيمه والعمل به.

وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة في باب التأليف تفسير الإمام محمود الألوسي (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ/١٨٠٢ - ١٨٥٤م) على ما فيه من تشدد في المذهبية - وتفسير الأمير صديق حسن خان (١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ/١٨٣٢ - ١٨٨٩م).

ثم جاء إمام النهضة بلا منازع، وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده، فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها، وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان.. وبه وبشيخه جمال الدين، استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها - (أي عزيمتها).

ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا جاريًا على ذلك النهج

الذي نهجه محمد عبده في تفسير القرآن، كما جاء شارحًا لآرائه وحكمته وفلسفته في الدين والأخلاق والاجتماع.

ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، قائد تلك النهضة بالجزائر، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها، من ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع على السُّنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران، يمد ذلك كله قوة خطابية قابلة النظير، وقلم كاتب لا تفل له شباة »(١).

« لقد كان من إصلاحات الإمام محمد عبده العملية في هذا الباب درسه لكتاب الله بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق، وهو من هو في استقلال الفكر، واستنكار الطرائق الجامدة.. ولكن السامعين لتلك الدروس - على كثرتهم وجلالة أقدارهم في العلم والمعرفة، وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها مما لم تنطو عليها حنايا عالم ولا صحائف كتاب - لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلا قليلاً، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد، ولو لم يقيض الله محمد رشيد رضا لهذا

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (١/ ٣٢٧).

العمل الجليل لضاع كله، ولكن الله وفقه لحفظ معاني تلك الدروس، وسدد قلمه في أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام الله فأبقى لهذه الأمة الأسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار »[1].

« ... لقد كان تفسير الأستاذ الإمام المنهاج المعجزة في التفسير المبين - بعد إرهاصات الشوكاني والألوسي وصديق حسن خان - بظهور إمام المفسرين بلا منازع: محمد عبده، أبلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان. فبوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيرا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك، فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره، محمد رشيد رضا، فكتب في التفسير ما كتب، ودون آراء الإمام فيه، وشرع للعلماء مناهجه، ومات قبل أن يتمه، فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل بالشمال الإفريقي عبد الحميد بن باديس »[2].

هكذا شهد الإمام البشير على إمامة الشيخ محمد عبده في

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي (٣٥٣/١).

(٢) المصدر السابق (٣٥٤/٣).

ميدان التفسير للقرآن الكريم.. فهو صاحب «المنهاج المعجزة» في التفسير.. الذي تجاوز تفسير القرآن فأصبح تفسير معجزات القرآن.. وفسر القرآن بلسان العرب ولسان الزمان.. فكان فارس هذه الحلبة، الكاشف عن الحقائق التي حام حولها من سبقه دون أن يقع عليها.. فبه وجد علم التفسير وتم.. وكانت دروسه فيه فيضان إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام العظيم.

* * *
* *
*

(٦)

في الإصلاح السياسي

وإذا كانت السياسة – في الرؤية الإسلامية – « هي الأفعال والتدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعها الرسول ولا نزل بها الوحي » – كما قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل (٤٣١ – ٥١٣هـ/١٠٤٠ – ١١١٩م) – ونقل هذا التعريف عنه الإمام ابن القيم –[1]، أي أنها مضبوطة بمنظومة الأخلاق والقيم الإسلامية – وليست « الميكيافيلية » التي تبرر الغايات فيها الوسائل!

إذا كان هذا هو المفهوم الإسلامي للسياسة – التي غدت « علمًا إسلاميًا »، وليست مجرد « علم » وفقط – فهي علم « السياسة الشرعية » لأن منها الأصول ومنها الفروع.. ومنها اللباب ومنها القشور.. ومنها القواعد والفلسفات والنظريات ومنها الأحكام والتدابير المتغيرة وفقه مستجدات الزمان ومقتضيات المصالح والعادات والأعراف، وضرورات البيئة والمكان.

ولأن الإصلاح – في الرؤية الإسلامية – إنما يبدأ من الجذور والأصول والفلسفات وسمات الهوية وقسماتها.. فإن مدرسة

---

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين (٣٧٢/٤، ٣٧٣)، طبعة بيروت (١٩٧٣م).

الإحياء والتجديد الإسلامي – التي قادها الأفغاني ومحمد عبده قد ركزت – في الإصلاح السياسي – على « الأصول » التي توصل إلى « الفروع ».. واهتمت « بلباب » السياسة، لا بالوقوف عند « القشور ».. وركزت على « الأمة » كطريق إلى « الدولة ».. واهتمت بإصلاح المؤسسات التي تصوغ العقل والوجدان قبل الأحزاب التي تقف عند الممارسات.. واعتمدت « سياسة التربية » كطريق « لتربية السياسة ».. وأرادت وضع الوطنية على صخرة الإسلام الصحيح.. وعلقت الآمال على « العلماء » لا على « الأمراء ».

ولقد تبنت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » هذا المنهاج السياسي.. وشهد على ذلك الإمام البشير الإبراهيمي.. فكتب يقول – في (١٩٤٧م) –:

« إن السياسة لباب وقشور.. ولباب السياسة، بمعناها العام، عند جميع العقلاء، هو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة.. فوجود تلك المقومات شرط لوجودها. وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط. ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يُرَدُّ بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت وَلَدَت (وطنًا).. ».

وبعد تحديد هذا المفهوم للسياسة الحقة، يمضي الإمام البشير ليؤكد على تبني « جمعية العلماء » لهذا المفهوم، فيقول:

« ونحن نفخر بأن هذا اللباب – لباب السياسة – إنما هو حظ « جمعية العلماء ». له عملت، وفي ميدانه سابقت فسبقت، وفي سبيله لقيت الأذى والكيد والاتهام. وفي معناه اصطدم فهمها بفهم الاستعمار، هي تفهمه دينا، وهو يفهمه سياسة.. إن « جمعية العلماء » تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض ساستنا – مع الأسف – يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله، وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع؟!.. ».

ثم يمضي الشيخ الجليل ليكشف عن أن هذا المنهاج في الإصلاح السياسي، وهذا الفهم للمنطلقات الحقيقية لهذا الإصلاح، إنما هو منهاج مدرسة الإصلاح التي بلورها الأفغاني والأستاذ الإمام.. والذي تميزت به وفيه عن الأحزاب الوطنية التي ركزت على « الدولة » لا « الأمة » وعلى « الأمراء » و « الخلفاء » بدلا من « العلماء »، وعلى « الحركة السياسية » أكثر من « الدعوة والتربية السياسية ».

يمضي الإمام البشير ليكشف عن الأستاذية المتميزة لمدرسة الإصلاح الديني في هذا المنهاج، فيقول:

« .. ففي الوقت الذي كان فيه جمال الدين الأفغاني يضع

أساس الوطنية الإسلامية على صخرة الإسلام الصحيح. ويهيب بالمسلمين أن ينفضوا أيديهم من ملوكهم ورؤسائهم وفقهائهم؛ لأنهم أصل بلائهم وشقائهم. وفي الوقت الذي كان محمد عبده يطيل ذلك البناء ويعليه. كان مصطفى كامل (١٢٩١ – ١٣٢٦هـ/١٨٧٤ – ١٩٠٨م) – على إخلاصه لدينه ووطنه – يوجه الأمة المصرية إلى مقام الخلافة العظمى المتداعي، ويخيف الاستعمار بشبح لا يخيف، ثم جرت الأحزاب المصرية إلى الآن على ذلك المنهج: إهمال شنيع لتربية الأمة وتقوية مقوماتها، وتطاحن أشنع على الرياسة والحكم، وترديد لكلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغن بمصالح الوطن وهي ضائعة، وترام بالتهم، والجريمة عالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص، والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شدقيه، وينام ملء عينيه.

ليت شعري! إذا كان من خصائص الاستعمار أنه يمحق المقومات ويميتها، ثم يكون من خصائص أغلب الأحزاب أنها تهملها ولا تلتفت إليها، فهل يلام العقلاء إذا حكموا بأن هذه الأحزاب شر على الشرق من الاستعمار؛ لأن الاستعمار يأتيه من حيث يحذر، والحذر – دائما – يقظ، أما هذه الأحزاب فإنها تأتيه من حيث يأمن، والأمن أبدا نائم؟!.. ».

وردًا على الذين يقيسون « الأحزاب » عندنا بالأحزاب في التجارب السياسية الغربية، يقول الإمام البشير:

« إن من الغفلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوربية، فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا اللغة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك، وأين نحن وأحزابنا من ذلك؟!.. ».

وهذه الحقيقة – التي أشار إليها الإمام الإبراهيمي – يغفل عنها الكثيرون.. فالنهضة الأوربية قد سبقت نشأة الأحزاب السياسية الأوربية.. وفي مرحلة النهضة بلورت أوربا مقوماتها وقسمات هويتها.. ثم جاءت الأحزاب تعبر عن التنوع والاختلاف في إطار « الوحدة ».. وفوق « الأرض المشتركة »، فكانت اختلافًا في « الفروع »، وليست شقاقًا في الأصول.. وظلت المقومات هي الحاكمة والموجهة لأغلب تلك الأحزاب.

ولقد اختتم الإمام البشير بالتأكيد على أن هذا المنهاج في الإصلاح السياسي – تقديم « الأمة » على « الدولة ».. و « الدعوة » على « الحركة ».. و « التربية على الأصول » قبل « الحزبية في الفروع ».. والتركيز على « العلماء » لا على « الأمراء » – إنما هو منهاج مدرسة الأفغاني والأستاذ الإمام الذي تبنته « جمعية العلماء ».

« فلقد رأى جمال الدين الأفغاني أن أنكر المنكر في زمنه هو عبث الأمراء المستبدين أو الأمراء الضعفاء بمصالح المسلمين، وأنهم أضاعوها في سبيل شهواتهم الشخصية، وأنه لولا سكوت

العلماء وقعودهم مع الخوالف لما تمادى أولئك الأمراء في غيهم، فوجه جهوده ووقف مواهبه على هذا الميدان السياسي، والسياسة في نظر الإسلام هي لباب الدين؛ لأنها حامية لشرائعه وشعائره وحدوده. وموقف الأفغاني من شاه إيران وسلطان العثمانيين وخديوي مصر مشهورة؛ فالأفغاني باتساع معلوماته، وباستعداده الفطري، وبعد نظره، وبصراحته وشجاعته، وبحسن فهمه لأمراض المسلمين، ومعرفته بأصناف علاجها، مصلح سياسي، اجتماعي، مستكمل الأدوات لا يشق له غبار ولا يصطلى له بنار ».

وكما سبق وأشار الإمام البشير إلى « عبقرية المكان » - مصر - في الإصلاح الديني - لدى هذه المدرسة الإصلاحية - عاد فأشار إلى ذلك في « الإصلاح السياسي ».

« فالأفغاني لم يتخذ وطنه - (أفغانستان) - مركزاً لحركاته وأعماله؛ لأن ذلك الوطن لا يصلح مركزاً لانبعاث حركة فكرية شاملة البعد وانقطاعه عن بقية الأوطان الإسلامية، واختار مصر قاعدة للحملات الصادقة التي حملها على استبداد الأمراء وخمول العلماء، وغفلة العامة ».

« وشيء آخر من بواعثه على اختيار مصر واتخاذها قاعدة لحركاته، وهو أن مصر لم تزل حاضنة العروبة، وحافظة عهودها من لدن الفتح الإسلامي، ولم تزل كعبة العرب ومهوى أفئدتهم منذ قرون، وكل مبدأ يتعلق بإصلاح شئون المسلمين العامة، فمن

دواعي نجاحه أن يكون منبعثًا من أرض العرب لمكانهم من النبوة ومنزلتهم من القرآن.. » [١].

* * *

« إن الذين يقرأون سيرة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده؛ يعلمون موقفه من الثورة العرابية (١٢٩٨هـ/١٨٨١م).. ويعلمون كيف كان مختلفًا مع عرابي وحزبه إبان التحضير لهذه الثورة، فلقد كان منهجه العمل على إصلاح المؤسسات التي تصنع العقل المسلم وتربي الوجدان الإسلامي – الأزهر، والمدارس، والمساجد، والقضاء، والأوقاف – والعمل على تجديد مناهج الفكر والتفكير الإسلامي.. وتصحيح العقائد الإسلامية.. والإصلاح اللغوي.. وتكوين النخبة والصفوة التي تربي العامة وتقودها؛ باعتبار ذلك هو المنهاج الذي يثمر النظام الدستوري والشوري، ويطبق كل سياسات الفروع في واقع الاجتماع الإسلامي » [٢].

وهذا المنهاج هو الذي أكد عليه ودافع عنه الإمام البشير؛ في حديثه إلى السيد غلام محمد – الحاكم العام لدولة باكستان – عندما زاره – في (٢١ مارس ١٩٥٢م).. وكانت باكستان تريد أن تضع لها دستورًا إسلاميًّا.. وتحدث حاكمها العام إلى

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/٦٤ – ٦٦).

(٢) المصدر السابق (١٩٥/٥).

الشيخ البشير عن أن أقدر العلماء على وضع الدستور الإسلامي هو جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده.. وأبدى أسفه الشديد على أنهما لم يصنعا ذلك.. وطلب من الشيخ البشير أن يصنع ما قصر فيه الأفغاني وعبده!.. فتحدث الشيخ البشير إلى الحاكم العام لباكستان، مدافعًا عن منهاج هذه المدرسة في ترتيب أولويات الإصلاح السياسي.. وكتب عن هذا اللقاء فقال:

« .. فاعتذرت عن الشيخين – (الأفغاني وعبده) – بأنهما صرفا عنايتهما إلى الأهم من أحوال المسلمين في زمنهما، وهو التقريب بينهم، وإصلاح خللهم، وإعدادهم لينقذوا أنفسهم من أمرائهم المستبدين، ومن أعدائهم المتسلطين، ولو تم هذا في زمنهما ولو في وجهة مخصوصة – (أي وطن من أوطان المسلمين) – لكانت الخطوة الثانية الطبيعية هي هذا الدستور الإسلامي الذي تقصدونه. ولعلهما كانا يريانه أسهل مما نتصوره نحن الآن، وهو كذلك إذا خف تأثير المذاهب المفرقة، واجتمع المسلمون على هدي الكتاب والسنة، وهو ما كان يعمل له الإمامان.. »[1].

إن القرآن هو دستور الدساتير، وبه ومنه بدأ الإسلام بتربية الأمة وإعادة صياغة الإنسان، وتكوين الصفوة والنخبة والريادات.. الجيل الفريد الذي تخرج في مدرسة النبوة.. وعندما تم هذا الإنجاز

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/٤٧ – ٤٨).

التأسيسي، وتبلورت الأصول، جاءت مرحلة الدستور الخاص بالدولة، وما تبع ذلك من فروع السياسات وتطبيقات الأصول، عقب الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.. وهذا هو المنهاج والترتيب في مفردات الإصلاح السياسي لدى كل الذين ينطلقون في الإصلاح السياسي من منهاج الإسلام في هذا الميدان.

* * *

• لقد قال الله ﷻ - في المحكم من نبأ السماء العظيم - عن شمولية المنهاج الإسلامي في الإصلاح: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠].

• وجاء في دستور دولة المدينة المنورة - « الصحيفة ».. « الكتاب » - الذي وضعه الرسول ﷺ فور تأسيس الدولة (١هـ/٦٢٢م) -:

« .. وإنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار

يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله »(١).

• وقال الإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ/٧١٢ - ٧٩٥م): « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. ».

وعلى امتداد تاريخ الإسلام كان المجددون.. وكانت مشاريع التجديد هي السبيل لمغالبة عاديات التراجع والهبوط والانحطاط.

• وفي عصرنا الحديث.. وإزاء « التخلف الموروث » و « الاستلاب الحضاري الغربي ».. قال جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، في تشخيص العلة.. وتحديد منهاج الإصلاح:

« لا أطيل عليك بحثا. ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكني أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب. ووسيلة تحيط بالوسائل.. إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.

أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد نباهة.. واطلب أسباب نهوضها الأولى.. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماع البشرية، حافظ وجودها، ويأذن لمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (ص ٢٠).

فإن كانت هذه شرعة هذه الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوط عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًا.. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.. ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن أصول الدين متأصلة في النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

ومن يعجب من قولي هذا فإن عجبي من عجبه أشد!.. ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كانت عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوّم أخلاقها وسدد أحكامها، فسادت على العالم! »[1].

هكذا صاغ الأفغاني - بعبارات هي من آيات الحكمة العالية -

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ١٣١، ١٩٧ - ١٩٩)، طبعة القاهرة (١٩٦٨م).

أسباب المأزق الحضاري للأمة الإسلامية.. وحدد سبيل الإصلاح والنهوض.

• وعلى ذات الدرب.. ومن نفس المنطلق.. وذات الموقع والمنهاج زكّى الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) سبيل الإصلاح بالإسلام.. فقال:

« .. لقد أشربت النفوس الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية، من عهد محمد علي (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) إلى اليوم.. فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادًا - وإن قيل إن لهم شيئًا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم.

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث

ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟! »[1].

ذلك هو منهاج مدرسة الإحياء والتجديد في الإصلاح - الإصلاح الديني.. والعلمي.. والتعليمي.. والسياسي.. منهاج « الإصلاح بالإسلام ».. ووفق ترتيب الأولويات، التي تقدم الأصول على الفروع.

• وعلى هذا الدرب سار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.. « وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين » تحت قيادة الإمام عبد الحميد بن باديس.

درب تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام.. ليكون الإحياء إسلاميًا.. وليكون التقدم صادرًا عن المنابع الجوهرية والنقية لأصول الإسلام.. وليكون حديثنا دائمًا وأبدًا بلسان القرآن ولسان الزمان!

* * *
* *
*

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، (٣/١٠٩، ٢٢١).

المصادر والمراجع

- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن (١٩٢٠م).

- ابن القيم: إعلام الموقعين، طبعة بيروت (١٩٧٣م).

- الأفغاني، جمال الدين: الأعمال الكاملة: دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة (١٩٦٨م).

- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، طبعة بيروت (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت (١٩٩٧م).

- د. محمد حمد الله الحيدر آبادي - محقق: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة القاهرة (١٩٥٦م).

- محمد عبده - الأستاذ الإمام: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة - دار الشروق (١٩٩٣م).

- د. محمد عمارة: مسلمون ثوار، طبعة القاهرة - دار الشروق (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

- محمد بن يوسف الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد - طبعة القاهرة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

° ° °
° °
°

الكتاب في سطور

الإمام البشير الإبراهيمي الذي تربى في مدرسة أئمة الإصلاح والتجديد، والذي لم يرث مالًا ولم يتمول أموالًا، ولكنه احترف صناعة تربية الرجال وإيقاظ الأمة، هذا العَلَم من أعلام الإصلاح نقدم عنه هذه الصفحات وفاء بدَينه؛ حيث جمع بين العلم والعمل الجهادي، ووفاء عظيمًا بدَين الأئمة الذين تتلمذ وتربى في مدرستهم الفكرية وعلى منهجهم الإصلاحي، والذين اعترف بأستاذيتهم في تحديد ملامح هذا الإحياء والتجديد الإصلاحي الشامل الذي سار على دربه .. درب تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الإسلام .. ليكون الإصلاح إسلاميًا .. ويكون التقدم صادرًا عن المنابع الجوهرية والنقية لأصول الإسلام .. وليكون حديثنا دائمًا وأبدًا بلسان القرآن ولسان الزمان.

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

